البيئة و تأثيرها في أنماط المعيشة من خلال المصادر الجغرافية العربية الإسلامية

الأستاذ طاهر طويل
جامعة سطيف2

تشكل الظروف الطبيعية المحيطة بالإنسان، بيئة ملائمة تتم فيها عمليات التأثير المتبادل وبشكل مباشر ما بين الإنسان من خلال أدوات الإنتاج، وعلاقاته الاجتماعية مع بني نوعه في الزمان والمكان، وبين وسطه الطبيعي المحيط به ليحوله إلى مظهر جغرافي بشري وذلك وصولا إلى تحقيق ظروف موضوعية يجد فيها أفراد النوع البشري المناخ الملائم للمحافظة على صيرورة وجودهم.

والعلاقة المتبادلة القائمة ما بين الإنسان والطبيعة ذات طابع جدلي ومعقد، فالطبيعة تقدم الإمكانات، وعلى الإنسان أن يسخر تلك الإمكانات لصالح استمرارية وجوده، من خلال مسيرة تطوره الثقافي المتحركة غير الثابتة، واستخدام تلك الإمكانات الطبيعية لتحويلها إلى مظهر بشري تسد حاجاته اليومية المتزايدة وغير الثابتة مع تقادم الزمن مرهون بما يستخدمه من وسائل إنتاج ومتطلبات المجتمع في حد ذاته[1]. هذه العلاقة التي صورتها النصوص الجغرافية العربية الاسلامية في قالب طريف وشيق في بعض الحالات، اعتمدت على ترجمة حياة هذه القبائل والمجتمعات في مختلف البلاد والأوطان.

إن الباحث في التراث العربي الإسلامي يجد أن العلماء والجغرافيين والرحالة قد أعطوا لعناصر البيئة الجغرافية دورا أساسيا في عملية تكوين ملامح الصفات العضوية، وانتبهوا إلى دور البيئة الجغرافية في تباين أشكال كل من النبات والحيوان في البيئات المتعددة،[2] فالبيئة الجغرافية بعناصرها الطبيعية كافة هي برأي إخوان الصفا كانت سببا في تباين الناس بملامحهم السلالية، وحتى بأخلاقهم وبلغاتهم، فاختلاف لغات الناس وألوانهم عائدا لاختلاف تراب وأهوية الأماكن التي يعيشون فيها.[3]

والنصوص الجغرافية وكتب الرحلة تشكل مصدرا هاما لهذا الموضوع، هذه المصادر التي تطورت عبر التاريخ العربي الإسلامي وتنوعت في مضامينها واهتماماتها حسب الموضوعات التي تناولتها. فقبل القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، لم تكن هناك مصنفات جغرافية قائمة بذاتها، إنما تقابلنا من وقت لأخر معلومات جغرافية متناثرة حفظتها لنا المصنفات والموسوعات الأدبية فيما بعد، ولم تكن لتخلوا من معلومات خاصة بالبيئة، وأنماط المعيشة.

أما بعد القرن التاسع ميلادي فنجد التطور الكبير للأنماط المتعددة للجغرافيا الوصفية؛ وقرب نهاية هذا القرن ظهرت المداخل الجغرافية التي وضع البعض منها كتاب الدواوين، أما القرن العاشر ميلادي/ الرابع الهجري فهو العصر الذي بلغ فيه الأدب الجغرافي أوجه، وذلك بظهور المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب بما تميزت به من اهتمام بوصف المسالك والممالك. ومنذ القرن الحادي عشر ميلادي وعلى الأخص القرن الثاني عشر انضمت إليها شيئا فشيئا مصادر من نوع جديد كالمعاجم الجغرافية ومؤلفات تستهدف الأوصاف العامة لجميع العالم سمائه وأرضه وهي ضروب من الكوزموغرافيا[4] فريدة من نوعها.[5]

وباتساع الرقعة الجغرافية للخلافة الإسلامية، وما يعنيه ذلك من دخول مجتمعات وقبائل مختلفة في أصولها وأعراقها وتقاليدها ولغاتها، كانت الجغرافيا الوصفية المدخل الرئيس الذي سمح لنا بمعرفة هذه المجتمعات وبيئاتها، وقد كانت إلى جانب ذلك غزيرة المادة حتى غلبت على الأدب الجغرافي العربي وسبغت عليه طابعه المميز واعطته شكله الخاص به مما يصعب إيجاد مثيل له في آداب الأمم الأخرى. وهذا يعود إلى التنوع في الأدب الجغرافي العربي الذي ساعدت على بروزه الكثير من العوامل ليس هذا مقام ذكرها[6].

وإذا كان الجغرافيون العرب في البداية قد انصرفوا إلى الاهتمام بالجغرافيا الإقليمية الخاصة بجزيرة العرب، فإن القرون التالية للفتح الإسلامي لبلاد الغرب الإسلامي ستفتح الأفاق أمام مجالات جديدة. إننا نجد الدائرة تتسع أكثر لتشمل بلاد السودان الغربي وإفريقيا جنوب الصحراء، ومنطقة أوروبا، والتي ستكون محل اهتمام هي الأخرى.

فالجغرافيون والرحالة سيضمنون في تصانيفهم معلومات عن الأقاليم المختلفة والعالم والظواهر الطبيعية والفصول، والأرض وأبعادها والجبال والجزر والأنهار والبحيرات والمدن والقرى. تلك هي المضامين التي تسمح لنا بمعرفة الحياة الاجتماعية وطبيعتها بين مختلف القبائل والمجتمعات التي وصفها هؤلاء. إذ تعرض الجغرافيون والرحالة العرب في مختلف مؤلفاتهم إلى العلاقة القائمة ما بين عناصر الطبيعة، وخاصة عناصر المناخ منها، والتأثير المباشر على الإنسان من خلال السكن والغذاء واللباس، حيث اعتبروا سكان المناطق المعتدلة هم الأكثر اعتدالا في الخلقة والخلق، والأكثر تطورا وكمالا في كل من ظاهرتي السكن واللباس؛ من بقية بني البشر، الذين يعيشون في مناطق جغرافية أخرى سواء الباردة

منها أم الحارة[7]. كل هذه العوامل سيكون لها التأثير المباشر في طباع الناس، وفي مختلف مكوناتهم الحضارية.

كما أسهم مصنفوا القرن التاسع في تدعيم الأشكال المختلفة للجغرافيا الإقليمية المحلية، والتي امتزجت بالأدب الجغرافي العام إذ طغت فيها المادة التاريخية أو الأسطورية بتعبير أدق على الجغرافيا، كما تطور نوع آخر هو نموذج فضائل البلدان، والمتمثل في ذكر مناقب الأماكن المختلفة استنادا إلى الأحاديث النبوية، ونادرا ما تكون المادة الجغرافية فيها سهلة المأخذ إذ يجب انتزاعها من الروايات والأخبار التي قل أن تمس المسائل التي نعالجها. ومن الطبيعي أن يكون الاهتمام أكثر بالمدن المقدسة[8]. وقد اقتضي ذلك التطرق إلى المجتمعات التي تعيش في هذه المدن وذكر طقوسهم وعباداتهم، والتي تشكل لهم بيئة روحية خاصة بهم. وازدهرت هذه الكتابات خاصة في أوقات الحروب و الأزمات حيث لعبت هذه المدن المقدسة دروا هاما في مواجهة الآخر الخصم أو العدو.

وفي مرحلة متطورة تالية اتخذت الكرامات معان وأبعاد مختلفة، كان الكثير منها تعبر عن عمق الأزمة والدعوة لتجاوزها من خلال الدعوة إلى وحدة القبائل المغربية وتقزيم عوامل الفتنة، فجاءت المصنفات المنقبية محملة بخطاب اجتماعي يطمح إلى تحقيق نوع من التوازن الاجتماعي والاقتصادي الذي أفقدته الأزمة، ومن ثم فإن موقفها كان انعكاسا أمينا وصادقا الى حد ما للأزمة الاجتماعية التي تجذرت في بلاد المغرب[9]. كما لعبت شخصيات المتصوفة والأولياء دورا اجتماعيا كبيرا يتجلى ذلك في مدونة المناقب والمتصوفة[10] التي تبرز مدى السيطرة الكاريزماتية للولي والتي كانت مرهونة بمدى نجاحه في قضاء حوائج الناس الذين يؤمنون به، حيث ساد الاعتقاد بأن قضاء الحاجات إنما يتم بفضل ما يمتلكه هؤلاء من بركة ومن قدرة على قضاء حوائج الناس.

أما حديثا فقد كانت المجتمعات العربية والمغاربية خصوصا محل اهتمام الأبحاث الأنثروبولوجية والسوسيولوجية، وهي التي ارتبطت بدراسات كولونيالية من أجل تسهيل وتسريع التحكم في المجتمع، وكانت السلطات الاستعمارية في حاجة إلى دراسات سوسيولوجية توفر لها معرفة موضوعية عن النظام المجتمعي بشكل عام والنظام الديني والعقدي بشكل خاص. فحكم وإدارة الأهالي يقتضي بالضرورة معرفة معتقداتهم وعاداتهم، فاهتمت هذه الدراسات الكولونيالية بناء على ذلك بالمعتقدات الدينية والممارسات المرتبطة بها، والتي شكلت مع مطلع الستينيات موضوع فحص وقراءة نقدية من طرف الباحثين المغاربة[11].

أنماط المعيشة والحتمية الطبيعية.

على كثرة الجغرافيين والرحالة والفقهاء والعلماء، الذين تعرضوا لتأثير العوامل الطبيعية في طبائع البشر ومعاشهم، نقتصر على نماذج فقط من هؤلاء، فقد كان ابن سينا يؤمن بتباين ألوان الناس بتباين الأحوال في الأصقاع التي يعيشون فيها، حيث السواد يسود أناس المناطق الحارة، في حين يسود اللون الأبيض الباهت عند إنسان المناطق الباردة الرطبة من سكان المعمورة، كما هو الحال في مناطق شمال غرب أوروبا. مثلما يقول الشاعر:

بالزنج حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتسب البياضا حتى غدت جلودها بضاضا[12]

ومما قاله ابن سينا في تأثير البيئة على الإنسان ولم يقل بها قبله أحد، هو التأثير غير المباشر للظروف المناخية والتضاريسية في عضوية الإنسان وسلوكه والمتمثل في التربة وتباين تركيبها الكيماوي، والذي يختلف من منطقة جغرافية إلى أخرى حسب منشأ تضاريسها الجيولوجي، وتركيبها الكيماوي وحسب الظروف المناخية التي تسود هذه المنطقة الجغرافية أو تلك، لأن كل ذلك يؤدي الى تباين في أنواع الترب نشأة وتركيبا، وهذه التربة بدورها تؤثر على ما ينبت فيها من نبات، وعلى ما يعيش فيها من حيوان، حيث ينقص في هذه التربة عنصر من العناصر المعدنية، في حين تزيد فيها كمية عناصر معدنية أخرى.[13]

إن هذا الكلام يدل على الارتباط الوثيق ما بين الظروف الطبيعية النميطة المحيطة بالإنسان من تضاريس، ماء، ارتفاع وانخفاض في تلك التضاريس، ومن تربة، وحتى أنه فرق بين نوعية التضاريس، حيث ذكر منها المناطق الحجرية المكشوفة، والحرارة، والبرودة، والرطوبة، والهواء وحركاته، هذا من جهة. وبين خواصه البيولوجية الإحيائية وما يطرأ عليها من تغيرات عرضية تصيبه مثل الأمراض، أو تغيرات بطيئة طويلة الأمد في ظهورها، لتكون واضحة فيه مميزة إياه عن أناس مناطق جغرافية أخرى غير المنطقة التي يسكن فيها وآباؤه منذ أزمان طويلة، مثل صفاته السلالية: من لون البشرة، ولون الشعر وشكله، وطول القامة وشكلها، واكتناز الجسم، أو نحافته، وسلامة صحته أو اعتلالها...

ويصل ابن سينا إلى خلاصات واستنتاجات، تتمثل في أن سكان الأصقاع الباردة هم ذوو بأس وأشجع من غيرهم، وأن أخلاقهم سبعية (قساة غلاظ السلوك)، وأن سكان المناطق العالية المرتفعة أجلاد ذوو صبر. أما سكان المناطق الحارة الرطبة في الأصقاع الجنوبية من المعمورة، فهم أقرب إلى

الخوف من الشجاعة في سلوكهم، في حين يكون سكان المناطق الجافة ذات الفروق الحرارية العالية ما بين الصيف والشتاء عكس طباعهم، وهذا ينطبق على سكان الصحاري و البوادي[14].

كما يؤكد على أثر العوامل الطبيعية وفي مقدمتها الحرارة والرطوبة، والارتفاع والانخفاض على مستوى سطح البحر، والبرودة والجفاف، على أبدان الناس وصفاتهم السلالية، وعلى سلوكهم وأمزجتهم. وأن تلك العناصر الطبيعية هي التي كانت سببا في تباين الملامح السلالية والسلوك عند بني البشر. وهي السبب أيضا في تباين عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم، وهي التي حددت النمط المعيشي من غذاء وسكن ولباس وشراب، وحتى طبيعة العمل الذي من خلاله يرزقون[15].كما أن عوامل الطبيعة المتباينة من منطقة جغرافية إلى أخرى من على سطح المعمورة، يتبعها تباين في الأمراض التي تصيب أبدان الناس في مناطق سكناهم.

في نفس الإطار نجد إخوان الصفا ينسبون نشوء وتكوين الصفات السلالية عند بني البشر إلى عوامل طبيعية صرفة بحيث يقبلها العقل والمنطق بعيدا عن الخرافة. فهم أول من أشار إلى علاقة حجم الجسم ومساحة جلده مع عناصر الوسط الطبيعي المحيط به وإلى علاقة فتحات مخارج الجسم مع عوامل الوسط الطبيعي الخارجي، وبخاصة مع عنصري الحرارة والبرودة،[16] وإن كانوا قد غالوا في دور الطبيعة غير آخذين بعين الاعتبار أهمية العامل الثقافي في تحديد كل من ماهية الملامح السلالية وأنماط السلوك و المزاج عند البشر .

كما نجد ابن خلدون في هرم الاتجاه الحتمي في التراث الفكري العربي الإسلامي، فكل هذه المسائل التي تبحث في أثر الإقليم والوسط الجغرافي في حياة البشر لم يحدث أن أخضعت قبل ابن

خلدون لفحص منتظم ودقيق، فهو في هذا المضمار يجب أن يعد مجددا بلا ريب ومثل أفكاره لم تظهر في أوروبا إلا بعد مضي عدة قرون.

فهو يرى أن سكان المناطق الدافئة يعرفون بطبائعهم العاطفية، وبانغماسهم في الملذات البدنية، وأما سكان المناطق الباردة فيغلب عليهم جمود العاطفة ونقص الحيوية، لكنهم شجعان ذوو بأس شديد، ويحبون العمل اليدوي، وبينهما المنطقة المتوسطة، التي نعتها بالاعتدال في خصائص عناصرها الطبيعية من حرارة ورطوبة وبرودة وجفاف، ولطافة الهواء فيها، ونعت أهل المنطقة الجغرافية المتوسطة المعتدلة بطباع الحكمة والاتزان، فلا تغلبهم العاطفة ولا يسودهم الجمود،[17] ويعزو ابن خلدون الصفات السلالية من لون البشرة ولون وشكل الشعر، وغيرها من الصفات في كل المناطق الثلاثة إلى عوامل المناخ الصرفة. ومن أجل ذلك خصص في كتابه "المقدمة" فصولا تطرق فيها لكل هذه العوامل.

ويمكن القول بأن لا علماء الأجناس، ولا علماء الاقتصاد، ولا علماء الاجتماع قد فرغوا من دراسة ابن خلدون من وجهات نظرهم المختلفة، كما أن كلا من المؤرخ وعالم الجغرافيا والاجتماع يستطيع الكشف عن الكثير من الإلهام لدى ابن خلدون[18].

غير أن الاعتماد على العناصر الطبيعية وحدها، وإخضاع أنماط معيشة الإنسان لها فقط فيه إغفال لقدرة تأثير الإنسان في بيئته الجغرافية المحيطة، فالبيئة الجغرافية المحيطة بالإنسان ليست نتاجا لفعالية عناصر الوسط الطبيعي ذاته، وإنما هي حصيلة أو نتاج لعلاقة متلازمة ما بين الإنسان من جهة والطبيعة ذاتها من جهة ثانية؛ حيث تتحول الملامح الطبيعية الصرفة للوسط الطبيعي المحيط بالإنسان، إلى بيئة جغرافية ممهورة بثقافة الإنسان وفعاليتها، حيث يتماشى عمق ذلك التأثير مع المستوى الثقافي الذي بلغته الجماعة البشرية في الزمان والمكان.

حيث أناطوا بعناصر البيئة الجغرافية، وبخاصة عنصري الحرارة والبرودة التأثير شبه المطلق في أبدان الناس وأخلاقهم، وسلوكهم، ومزاجهم، بل الأكثر من ذلك أنهم ردوا إلى تلك العناصر نشأة اللغة وتكونها عند الإنسان، وتباينها بين مجتمع بشري وآخر، دون أن يكون للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أي دور في ذلك[19].

إن ابن خلدون في ربطه للسلوك والأخلاق عند الناس بما يحيط بهم من عناصر البيئات الجغرافية، هو مغالاة مفرطة، لأن البيئة الجغرافية ليست إلا عاملا واحدا من بين عوامل متعددة، منها اقتصادية، اجتماعية، وثقافية، إلى جانب العامل الإحيائي أو البيولوجي، تلك هي بعض العوامل التي تحدد —مجتمعة– سلوك الإنسان وأخلاقه ومزاجه.

وإذا كنا لا ننكر مدى تأثير العوامل البيئية في سلوك الناس ومعاشهم فإن المصادر الجغرافية وكتب الرحلة تكون أكثر صدقية ودقة في ترجمة حياة المجتمعات التي زارها أصحابها أو نقلوا أخبارها، و من خلال أوصافهم نقف على مدى قدرة الإنسان على التكيف والتلاؤم مع عوامل الوسط الطبيعي المحيط به.

فالمصادر الجغرافية العربية والإسلامية تمدنا بالكثير من المعلومات الخاصة بمختلف القبائل في مشارق الأرض ومغاربها، فنجد المسعودي (ت346هـ/7- 958م) وهو واحد من أعلام الفكر الجغرافي العربي الإسلامي في القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي. أحاط بالمعرفة الجغرافية إحاطة وافية[20]، وهو أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة في القرن العاشر، وكان ميدانه الحقيقي الرحلات الواسعة والاتصال المباشر بمختلف الطبقات، شملت رحلاته جميع البلدان من الهند إلى المحيط الأطلسي، ومن البحر الأحمر إلى بحر قزوين، ومحتمل أنه زار الصين وأرخبيل الملايو[21].ففي كتابه التنبيه والإشراف

يتطرق إلى تأثير الكواكب على السكان واختلاف صورهم وألوانهم وأخلاقهم، ووصف الأقاليم السبعة وعروضها، ومجاري الأفلاك وهيأتها واختلاف حركاتها. كما يربط بين بياض البشرة وزرقة العيون ورقة البشرة، وسبط الشعر وصهوبة لونه، بقلة أشعة الشمس في المناطق الشمالية الباردة القريبة من دائرة القطب الشمالي[22].

كما يرجع سبب الغباء وغلظ الطباع، والقساوة في السلوك عند سكان الأصقاع الشمالية التي تقع في أقاصي العروض العليا باتجاه منطقة القطب الشمالي، إلى عوامل المناخ وليس إلى صفات عضوية فطرية تكمن في أبدانهم.

أما المقدسي الذي ولد في 335هـ/946.947م، فيعتبره اشبرنجر Sprenger أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة (ولو شاب هذا الرأي بعض المبالغة)، فإن العالم كراموس Kramers يرى بأن المؤلف أكثر الجغرافيين العرب أصالة وقيمة. وهذا بسبب كثرة أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة منظمة. وهو في سن الأربعين وضع كتاب: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. فيه الكثير من الطرافة والأصالة وقوة الملاحظة[23].

في البداية وبعد أن أكد لنا المقدسي أنه ألف كتابه بالاستعانة وسؤال ذوي العقول من الناس، فإنه قام بعملية تقييم لسابقيه من الجغرافيين ووقف على نقائصهم، وهي التي سيتجنبها في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم". وفيه يذكر البحار والأنهار، ثم يذكر أقاليم العالم وخصائصها، وعيوبها. ولم يغفل المقدسي التطرق إلى النحل والمذاهب والمجتمعات التي تعتنقها[24].

ونجد مؤلف الشريف الإدريسي (ولد في سبتة عام 493هـ/1100م) في الجغرافيا يمثل بكل تأكيد ظاهرة ممتازة في محيط الأدب الجغرافي العربي خاصة، وفي النشاط العلمي لجميع العصور الوسطى عامة. ألف كتابه بطلب من الملك النورماندي روجار الثاني الصقلي، إذ لم يجد من يضع له جغرافية لأرضه وللدول التي يريد السيطرة عليها، فأوروبا الإفرنجية لم تعرف قط علم الجغرافيا، ولم تعد تسمع بالجغرافي اليوناني بطليموس، وهذا ما أدى بحاكم صقلية إلى الاستعانة بالجغرافي المسلم الإدريسي،[25] حيث كلفه بتصنيف كتاب شامل لوصف مملكته وكل البلاد المعروفة، وسماه "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، ويقول عنه أماري أنه: أفضل رسالة في الجغرافيا وصلتنا عن العصور الوسطى. سواء من الشرق أم من الغرب. كان ولفترة طويلة من الكتب الجغرافية ذات القيمة الكبرى والأكثر رواجا وسمعة في أوروبا[26].ويرجع الإدريسي سواد البشر وتفلفل الشعر عند سكان الإقليم من المعمورة إلى شدة حرارة الشمس.

أما البكري في كتابه المسالك والممالك، فيتطرق لأحوال معيشة فرسان الصحاري الإفريقية الكبرى، حيث تكيفوا مع درجات الحرارة الملتهبة في كل من غذائهم، ومشربهم، وملبسهم، فهم متنقلون يضربون خيامهم حيث الكلأ و الماء لقطعانهم،[27] ويذكر أن عمر بن الخطاب لما فتح العراق والشام ومصر كتب إلى الحكماء يسألهم عن البلاد و تأثير أهويتها وتربتها على سكانها، فجاءته إجاباتهم حول بلاد الشام، ومصر، وأرض اليمن والحجاز، والعراق، كما ذكروا له عاداتهم وأنهارهم وجبالهم، وغيرها[28].

في نفس الإطار نجد في كتابات الرحالة ابن بطوطة معلومات أكثر صدقية ودقة من غيره، إذ أن شهاداته ذات أهمية قصوى اكتست طابع أناسي أنثروبولوجي، فقد اهتم بوصف حقائق الأمور من البنى الاجتماعية، والثقافية، والمعتقدات الروحية لكافة الشعوب التي ارتحل وعاش بين ظهرانيها، حيث

مارس عمل القضاء في جزر المالديف التي تتمتع بمكانة خاصة في ذاكرته، وبخاصة عادات وتقاليد وسلوك أهلها التي كانت قد استحوذت على تفكيره، وتتصف المعلومات الإناسية التي كان قد جمعها ابن بطوطة عن الشعوب التي ارتحل إليها بالدقة والصدق والواقعية، لكونه جمعها لا عن طريق السماع والملاحظات الشخصية والمباشرة من قبله فحسب، وإنما عايشها عن طريق الممارسة، حيث اندمج اجتماعيا معيشيا وسلوكا مع الشعوب التي ارتحل إليها[29]. ويدل ذلك على عمق ملاحظاته، كما تشكل كتاباته خلاصة لكل القيم الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي توصلت إليها مختلف المجتمعات[30].

الرحالة واستكمال علم الجغرافيين

يشكل الرحالة أحد أهم المصادر الخاصة بدراسة أنماط المعيشة وعلاقتها بالبيئة، ومن المهم معرفة الوسط الأسري للرحالة، فابن جبير وصل مكانة هامة بين الكتاب والعدول[31]. كما توارثت أسرة البلوي القضاء، وهو ما أشار إليه المؤلف نفسه[32]، كما أن ابن رشيد وابن بطوطة معا أبني أديبين قاضيين. ومن خلال هذه الإشارات نستنتج أن هؤلاء الرجال ينحدرون من الوسط نفسه الذي هو وسط الصفوة وموظفي الإدارة، وهم المستفيدون عادة من الوضع الاجتماعي الموطن.

فعلاوة على الحظوة المادية التي لم تكن بالطبع متساوية لدى الجميع، كانوا ينعمون بجاه العلم والوظيفة، وتلك فعلا حالة الفقهاء الذين علاوة على تشكيلهم لجزء من السلطة التشريعية، كانوا يوجهون الايديولوجيا الدينية والسياسية عبر التعليم و الوعظ، ولهذا كان يحترمهم السلاطين[33].

غير أن هذا لا ينفي وجود اختلافات كثيرة بينهم، فعلى سبيل المثال نجد الغرناطي والعبدري والسبتي تصمت كتب التراجم عن تحديد انتمائهم الاجتماعي، بيد أن كونهم استطاعوا الانقطاع إلى التعلم في شبابهم والرحلة بعد ذلك إلى المشرق لإتمام معارفهم يجعلنا نفترض أنهم ينتمون أيضا إلى أسر العلماء والأعيان[34].

عموما فإن الظروف السياسية التي ظهرت فيها الرحلات على المستوى السياسي، كان العالم الإسلامي أكثر تشرذما بعد محاولة التوحيد الجزئية التي اضطلع بها الموحدون في المغرب، بل إن مؤسسة الخلافة رمز الوحدة قد اختفت، وهنا نجد تحولا على مستوى الأدب الجغرافي بظهور جنس جديد منه، فالمسالك التي كانت تعيش على حلم معين، مقدمة الإمبراطورية الإسلامية باعتبارها متكتلة حول بغداد التي كان يدرك سقوطها الحتمي، قد تركت المكان للرحلة وسلطت النظر على الحاضر ووصفت العالم الإسلامي كما هو: فسيفساء من الممالك والإمارات[35].

كانت مظاهر السقوط بادية حتى زمن تألق الموحدين انطلاقا من المعطيات التي قدمها الإدريسي[36]، بانحسار الاقتصاد الذي قبع في منطقتين من الساحل الأطلسي، وسواحل المغرب الأوسط وافريقية وسيطرة الجمهوريات الإيطالية على التجارة المرفئية. في نفس الوقت انحسرت التجارة الداخلية بغياب الأمن نتيجة ضغط البدو الذين فرضوا الضرائب ونشروا حالة اللأمن بالبلاد.

وفي مثل هذه الظروف خاصة في القرن السابع للهجرة/13م، راجت الأخبار والأساطير التي تصور نهاية العالم. وما من شك في أن الأحاديث المتعلقة بالمهدي المنتظر راجت في هذه الفترة لصلتها بهذه الفكرة، فكان هناك حس مشترك بضرورة وجود منقذ أو مخلص وإحساس عام بأن الحياة الدنيا على وشك النهاية. وكان هناك لقاء حول أمنية تحوم حول فكرة المنقذ أو المخلص، وبالموازاة مع هذه

العقائد راجت مباحث التنجيم وأشربت العقائد الصوفية بالعقائد السحرية وأسطورة العود الأبدي ونهاية الزمان[37].

ومن هنا يمكن أن نفهم (الميثولوجيا السحرية) ميثولوجيا المهدية إذا ربطناها بشروطها التاريخية خاصة بالغرب الإسلامي. من ذلك دخول الأندلس في مسار الانحلال والتفكك والهزائم المتتالية: حيث سقطت قرطبة في 633هـ/1236م، وبلنسية في 636هـ/ 1238، واشبيلية 646هـ/ 1248م، والمرية في 666هـ/ 1268م، أمام غزوات الممالك المسيحية، والذي كانت آخر محطاته سقوط غرناطة سنة 898هـ/ 1492م، ونهاية الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، وما خلفته هذه الهزائم المتتالية من صدى عميق في نفوس المسلمين[38].

وقد أدت تلك الظروف إلى خلق تغييرات عميقة في السلوك والطقوس والصور والرموز والأساطير والمخيال انعكست على الواقع التاريخي للمجتمع. وتحولت كتب الرحلة إلى يوميات صوفي لدى بعض الرحالة الذين كانوا يتبركون بالأولياء و الصلحاء والدعاء عندهم؛ فالمتتبع لجدول تنقلات العبدري ولنشاطه من خلال اجتيازه على تونس يلاحظ أنه لا يكتفي بزيارة شيوخه ممن عرف بالعلم والصلاح، ومجالستهم والتردد عليهم متبركا بصالح دعائهم، لكنه يلبس خرقة المتصوفة. فهل يمكن اعتبار ذلك انخراط لمثقفي الغرب الإسلامي في نهاية القرن السابع الهجري/13م في عالم الولاية والأولياء، والاعتقاد بأن الصلحاء ممن يشد إليهم الرحال أحياء وإلى قبورهم أمواتا، كما فعل ابن رشيد وابن قنفد وابن بطوطة،[39]؟

إننا نجد أنفسنا أمام ظاهرة تخص الرحالة لفترة ما بعد القرن السادس الهجري/12، تتمثل في تحول الرحلة أحيانا إلى يوميات صوفي، وهذا ما نجده عند التجاني الذي كان يستأنس بمسالك البكري

ونزهة الإدريسي، وكان ذكر الأولياء وسرد كراماتهم موضوعا محببا لديه. ومع ذلك لا تخرج رحلة كل من ابن بطوطة والتجاني عن النهج الذي اختطه ابن جبير، فكلتاهما مطبوعتان بالميل للمحسوس دون خلوها من الملاحظات الشخصية، سواء عن الظروف الفيزيقية (المناخ، طبيعة الأرض، النبات، الماء)، أم عن المراحل (الحواضر والبوادي)، والإنتاجات والبشر (النظم، الأنشطة، العادات ، المعتقدات..)[40].

كما يتبين أن مؤلفي كتب المناقب والكرامات حاربوا طغيان الثروة بالدعوة إلى نبذ المال وإبراز مساوئه، ولا شك أن قراءات فاحصة في هذه الكرامات تكشف النقاب عن رغبة هؤلاء في التحرر من سلطان المال والأغنياء. ولبلوغ هذا الهدف يلاحظ أن كتب المناقب ركزت على فكرة الصدقة و الإحسان باعتبارها حلولا قد تخفف من طغيان الثروة و تكدسها في يد أقلية من المجتمع، ولذلك شكل هاجس الصدقة والإحسان موضوعا رئيسيا في كرامات الأولياء[41].

عموما فإن كتب المناقب خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/13-14م تلبي حاجة المريدين الاجتماعية والاقتصادية؛ فالمتأمل في النصوص المنقبية يلاحظ مدى أهمية ما يسمى بالكرامات الاجتماعية، ففي مناقب أبي سعيد الباجي (ت 628هـ)، تتمحور أغلب الكرامات حول إشفاء المريض وإطلاق السجناء، وإطعام الفقراء، وسقاية الزرع، وجلب الغيث، أي أنها تلبي لدى جمهور المريدين حاجاتهم المختلفة[42].

غير أن هذا لم يمنع من أن نجد كتابات مختلفة عند رحالة آخرين تتميز بالصرامة؛ فالعبدري لم يكن متساهلا في انتقاد ما كان يراه غير طبيعي سواء في أخلاق الناس أم عاداتهم، وعلى الأخص في المستوى العلمي للبلدان التي دخلها. إلى درجة وصفت معها آراؤه أو نقده بالتطرف والتحامل.

والحقيقة أن العبري لم يترك موضعا إلا ووجه إليه انتقاداته بصراحة لا مداراة فيها، فهو دائم البحث والسؤال عن المستوى العلمي والأخلاقي في البلدان التي حل بها فإذا لم يجد ذلك المستوى الرفيع في العلم والأخلاق جهر لسانه بالنقد والشتم أحيانا، والصرامة في تغيير المنكر دون لين أو مداراة[43]. في حين نجد رحالة آخر يتتبع التفاصيل ويذكر كل الأحداث ووصفه لجميع ما له علاقة بموكب أبي عنان، كالجيش والأسلحة والأساطيل والمنازل والخيام والأخبية. مع اهتمامه بوصف الظروف الطبيعية والأحوال السياسية[44].

ويعتبر التنقل والحركة من أهم خصائص السكان في العصر الوسيط، والمؤرخ أو عالم الاجتماع الذي يتبنى المنظور التاريخي، فإنه لا يتصور النسق القبلي خارج نطاق التنقلات السكانية والتحول الديموغرافي أو تغيير الخطوط والممرات التجارية، ولا يطرح القبيلة إلا في سياق التحالف أو التضارب مع قوى خارجية، سواء كانت جهازا مركزيا أم زاوية جهوية[45].والمنظور التاريخي لا يقف عند التعارضات والتضاربات القبلية على أنها التعبير الفعلي على البنية القبلية، بقدر ما يتعامل معها باعتبارها نتاجا أو رد فعل على تحولات أشمل وأعمق.

كما أن الاعتماد على الأمن كمعطى وحيد لتفسير التوازن الاجتماعي والسياسي الداخلي القبلي يبدو أمرا مبالغا فيه لأن الأخطار والحروب والنزاعات ليست معطيات دائمة بل هي حالات طارئة وجزئية[46]. وينطبق هذا إلى حد بعيد على قبائل المغرب الأوسط و تفاعلاتها مع مختلف الكيانات السياسية وتوزعها على ولاءات مختلفة. أي أن العملية تتطلب استحضار عوامل مختلفة تتعلق بالمذاهب العقدية، والاقتصاد، ونمط المعيشة، لتفسير التوزع القبلي والنفوذ.

لقد اعتبر الإنقساميون أن للقبائل العربية الخصائص ذاتها التي تميز المجتمعات الانقسامية. فالقبائل تنطوي على هرمية متدرجة حسب الحجم والقوة، وهي تنظيمات تشخص في دوائر متفاوتة الأحجام أو في أشجار متكاثرة الفروع. ويقوم التوازن الاجتماعي في المجتمع الانقسامي على مبدأين: الانصهار والانشطار، حيث يكونان حالتين من حياة الجماعة، تظهر الأولى في حالات الخطر وفقدان الأمن فيسود التضامن والتوحد لمواجهة التهديدات الخارجية، وتظهر الثانية في حالات السلم والهدوء حينما يدب الصراع بين الفروع القبلية والقسمات المتجاورة[47].

على أن الكثير من المجتمعات قد حافظت على وحدتها وبصيغ مختلفة في التاريخ تلك التي نجد بيئتها العامة في ثنايا كتب الرحالة والجغرافيين، فالبقايا الوثنية من مجموعة المعتقدات والطقوس القديمة والتي تم احتواء بعضها من طرف الدين الإسلامي و البعض الأخر بقي حاضرا ببساطة داخل معتقدات وطقوس المسلمين رغم الاعتراضات الشديدة للفقهاء[48]، وهو ما نجده منتشرا بين القبائل العربية والبربرية على حد سواء.

هذه القبائل التي احتفظت بموروثها وهي مسألة لا يمكن إخضاعها للتحقيب الزمني أو معرفة كيف تمت العملية بشكل دقيق، فالعملية أخذت أشكالا مختلفة لتتطور عبر التاريخ.

تبقى مسألة الطرق والمسالك من العناصر الهامة التي لا تقل أهميتها عن باقي العوامل الأخرى في التأثير في نمط معيشة السكان، و المصادر المختلفة لم تغيب هذا الموضوع، كما أنها لم تهتم به في حد ذاته. بل اعتادت هذه المصادر أن تقيم نوعا من التلازم بين أوضاع أمن الطرق وبين أحوال الدول. إنها ثنائية الطريق الآمن والطريق المخوف، وفي كلتا الحالتين، يشكل أمن الطريق عنصرا من عناصر صورة مركبة تحيل على ثنائية النظام والاختلال.[49]

اما بالنسبة للمجتمع ومكوناته فقد نالت هي الاخرى نصيب من الدرسات التي اعتمدت على المصادر التاريخية والجغرافية، إلا ان المؤاخذات الرئيسية التي وُجهت بها الطروحات الانقسامية نزوعها إلى تشكيل قوالب نظرية ومفاهيمية بالغة التجريد تذوب في نطاقها لحمة الوقائع وتنتفي الفوارق والخصوصيات القائمة بين مجتمع وآخر، دون أن تكلف نفسها في البداية جهد التعرف المسبق على ما يكفي من الظواهر العينية والمتنوعة للمجتمع المدروس[50]. ورغم ذلك فإن الطرح الانقسامي الذي اكتسب في بعض الأحيان طابعا حادا(مثلا البدو يقابلهم الحضر. العامة يقابلهم الخاصة من الحكام، العرب والبربر ...)، فقد ساعدت مع ذلك على استجلاء بعض خصائص ومميزات البنيات القبلية في مجتمعات المغرب العربي، ووفقت نسبيا في وصف بعض علاقاتها وديناميا‌تها الرئيسة، انطلاقا من الاحتكاك المباشر بالوقائع العينية[51].

من هنا نفهم طبيعة المجتمع القبلي ببلاد المغرب في العصر الوسيط والذي كان محل وصف الجغرافيين والرحالة، خاصة القبائل الهامشية والتي كانت بعيدة عن المركز، الذي كان يمثل كيانا موازيا أو مواجها للمجتمع المركزي الخارج عادة عن مجال السلطة المركزية، والذي كان يتجاوز مجرد الدعوة للسلطان على المنابر[52].

ومهما يكن فإن الأنثروبولوجيا التاريخية وحدها قادرة على تجاوز أزمة الانقسامية، لأن بإمكانها أن تحقق التمفصل بين البنيات الاجتماعية والتاريخ، لأنها تتحاشى في دراستها عزل المجتمعات عن سياقها الاجتماعي التاريخي[53]. فنجد مثلا ابن خلدون الذي أحاط بأحوال الناس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية وحتى السياسية، ونظر فيها نظرة العالم الواسع الأفق، الكثير الاطلاع على كل من البناء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات الإسلامية التي عاصرها، فكانت المقدمة بمثابة

سجل تاريخي اجتماعي أحفوري لأحوال الناس في تلك الحقبة التاريخية. فقد وضع ابن خلدون إصبعه على كل داء اجتماعي ومعيشي، كطبيب اجتماعي عارف لأسباب الداء، وأعراضه، وواصف للدواء[54].

فكانت مقدمة ابن خلدون محاولة انثروبولوجية شاملة ومتكاملة عن الإنسان والمجتمع، نشأة و تطورا من حال إلى حال نتيجة عوامل ذاتية تكمن فيها. وهي محاولة أنثروبولوجية جادة وفريدة في زمانها، لأتساع المعلومات التي جاءت فيها، والتي تعد أساسا لكافة فروع علم الأنثروبولوجيا (علم الأناسة)، للوصول إلى وضع قوانين عامة وشاملة تتحكم في مسيرة المجتمعات الإنسانية، فكان له السبق في ذلك.

الهوامش:

1- علي عبد الله الجباوي. الفكر الأنثروبولوجي في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق .1996 ص 23

2- علي الجباوي . نفسه ص 241

3- إخوان الصفا . رسائل إخوان الصفا. ص 306 302

4- الكوزموغرافيا هو علم الكونيات COSMOLOG

5- اغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي . تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1957 . ج1 ، ص 20- 21

6- كراتشوفسكي. نفسه. ص 18

7- الجباوي. المرجع السابق. ص 310

8- كراتشوفسكي. المرجع السابق. ص 166 - 168

9- ابراهيم القادري بوتشيش. تاريخ الغرب الاسلامي. قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة بيروت. 1994.

10- حول هذا الدور أنظر نللي سلامة العامري. الولاية و المجتمع. مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي إفريقية في العهد الحفصي. منشورات كلية الآداب . جامعة منوبة، ص 301،294،299 302، 304.

11- عبد الغني منديب. الدين والمجتمع. دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، افريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب، 2006.ص 120

12- ابن خلدون. المقدمة ص 444

13- ابن سينا. القانون في الطب ج1 ص90 91.

14- ا ابن سينا. القانون في الطب ج1 ص 91.

15- نفسه ص 92

16- الجباوي. المرجع السابق. ص 244- 245.

17- الجباوي. المرجع السابق. 251- 252، 257

18- كراتشوفسكي. تاريخ الادب الجغرافي. ص 444.

19- الجباوي. المرجع السابق. ص 272 -273

20- نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب. دار الكتاب اللبناني.بيروت، 1987، ص 152 - 157

21- كراتشوفسكي. ص 177 - 179

22- التنبيه والاشرف، ص 22

23- كراتشوفسكي. المرجع السابق. ص 208- 209

24- المقدسي. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. نشرة محمد أمين الضاوي ، ط 1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 .ص 36

25- علاوة عمارة. دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ص 204 -205

26- كراتشوفسكي. نفسه، ص 279.

27- البكري. المسالك والممالك . نشرة جمال طلبة ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 ج ،2 ص 59 - 61

28- الجباوي. المرجع السابق. ص 349 - 351

29- محمد المغيربي. رحالة الغرب الإسلامي، ترجمة عبد النبي ذاكر، دار السويدي، ابو ضبي الامارات العربية ص24 25 .

30- بوطالب نجيب . سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي . ط01 ، مركز دراسات الوحدة المغربية ، بيروت ، 2002 . ص 50

31- المقري . نفح الطيب ج ،2 ص 48

32- البلوي . تاج المفرق، ص 3

33- المغيربي. المرجع السابق. ص 25 - 26

34- المغيربي. نفسه. ص 26

35- المغيربي. المرجع السابق. 36

36- الادريسي. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . ط 01 ، عالم الكتب ، بيروت ، 1989 ص 20 وما بعدها

37- مراد الضويري. انثروبولوجيا الإسلام. التفكير السحري في الثقافة العربية الاسلامية في القرنين السابع والثامن الهجريين. ابن عربي وابن سينا نموذجا.دار سحر للنشر، تونس.2014. ص 277 278

38- المغيربي. المرجع السابق. 278

39- نللي سلامة العامري. الولاية و المجتمع. مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي إفريقية في العهد الحفصي. منشورات كلية الآداب . جامعة منوبة، ص 480

40- المغيربي. المرجع السابق. ص 50

41- بوتشيش. المرجع السابق. ص 118

42- مراد الضويري. انثروبولوجيا الإسلام ص 255

43- الحسن شاهدي. أدب الرحلة في العصر المريني مطبعة دار القلم، الرباط، المغرب ط02.ص 277 278

44- الحسن شاهدي. المرجع السابق. ص 613

45- 'لمختار الهراس. القبيلة والسلطة. تطور البنيات الاجتماعية في شمال افريقيا، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني. الرباط.ص 53

46- محمد نجيب بوطالب . سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي . ط1 ، مركز دراسات الوحدة المغربية، بيروت، 2002 .ص 44 و ما بعدها

47- محمد نجيب بوطالب. المرجع السابق ص 43

48- عبد الغني منديب. الدين و المجتمع دراسة سوسيولوجية ص 20

49- عبد الاحد السبتي. بين الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، ط1، 2009. ص 91.

50- المختار الهراس. المرجع السابق. ص 49

51- مختار الهراس. نفسه 54

52- بوطالب. المرجع السابق. ص 44

53- بوطالب. نفسه. ص 45

54- الجباوي. المرجع السابق. ص 515

قائمة المراجع والمصادر

1-علي عبد الله الجباوي.الفكر الانثروبولوجي في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق .1996

2- اخوان الصفا .صفا رسائل اخوان الصفا

3- اغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي . تاريخ الأدب الجغرافي العربي . ج 01 ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1957 .

4- ابراهيم القادري بوتشيش. تاريخ الغرب الاسلامي. قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة بيروت. 1994.

5- المقدسي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ط 1 ، نشرة محمد أمين الضاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 .

6 البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد : المسالك والممالك . ط 1 ، نشرة جمال طلبة ، دار الكتب العلمية، بيروت ، 2003 .

7- عبد الغني منديب. الدين والمجتمع. دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، افريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب، 2006.

8- عبد الرحمن بن خلدون المقدمة . دار الجيل ، بيروت

9- نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب. دار الكتاب اللبناني.بيروت، 1987.

10- الإدريسي ، أبو عبيد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحسني . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . ط 1 ، عالم الكتب ، بيروت ، 1989

11- محمد نجيب بوطالب. سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي. ط1 ، مركز دراسات الوحدة المغربية، بيروت، 2002

12- محمد المغيربي. رحالة الغرب الاسلامي، ترجمة عبد النبي ذاكر،دار السويدي، ابو ضبي الامارات. ط1، 2013

13- بوطالب نجيب . سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي . ط01 ، مركز دراسات الوحدة المغربية ، بيروت ، 2002 .

14- مراد الضويري. انثروبولوجيا الإسلام. التفكير السحري في الثقافة العربية الاسلامية في القرنين السابع والثامن الهجريين. ابن عربي وابن سينا نموذجا.دار سحر للنشر، تونس.2014.

15- الحسن شاهدي. أدب الرحلة في العصر المريني مطبعة دار القلم، الرباط، المغرب ط02.

16- ا لمختار الهراس. القبيلة والسلطة. تطور البنيات الاجتماعية في شمال افريقيا، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني. الرباط المغرب.

17- عبد الاحد السبتي. بيمن الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، ط2009،1.

18-نللي سلامة العامري. الولاية و المجتمع. مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي إفريقية في العهد الحفصي. منشورات كلية الآداب . جامعة منوبة، 2001